خطر نلهو عنه فيلهو بنا

بدا صوته مرتعشا تخفق فيه رجولة تأبى أن تكون ذليلة ، فيكبح جماحها ويتكلف عدم الاكتراث وهو يقول :

فقط أريد أن أعيش .

قلت ولكنك تسألنى البحث عن عيش ذليل .

ـ ذليل ؟ إن جوع يوم واحد يا سيدتى ، كفيل بأن يمحو هذه الكلمة من قاموس ريائنا العجيب ، وقد يقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية الناس جميعا ، فلا يهمه فى سبيل تهدئة ثورة أمعائه ، هل يهيم مع الحيوان يأكل العشب ويقتات بقشور البطيخ وورق النبات ، أو يثور على القوانين فيسرق ويختلس .

ـ إذن فأنت تصر على أن أبحث لك عن منزل تخدم فيه ؟ إنى لمشفقة على رجولتك يذلها الزمن ، فتنال لقمتك مغموسة فى الذل والمهانة .

ـ وما العار فى أن أكون خادما ؟ أو أنال طعامى أجرا

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٢٧ من يونيه سنة ١٩٣٥

على عملى ؟ ومع هذا فأرجو أن أوفر عليك شفقتك . فأنت لا تشفقين على رجولتى ، وإنما ـ اغفرى لى صراحتى ـ تخجلين من أن يعمل رجل تربطك به صلة قرابة بعيدة ، فى منازل معارفك كخادم . لاألومك على هذا بل أؤكد لك أننى سأخفى عن الناس جميعا ، أن أخى كان زوج ابنة خالة أبيك . لماذا يبدو عليك الألم هكذا ؟ أو تظنين أننى أتألم ؟ أنت إذن غبية ، معذورة فى غبائك . لقد مرت علينا فى الريف أيام كان كل منها عمرا من الشقاء كاملا ، كنا نضع فى «المشنة» بضع لقمات من الخبز الجاف ونجلس حولها ـ أنا وأمى وزوجى وطفلتى ـ أتناول اللقمة متباطئا ، وأضعها فى فمى فى بطء أشد . ثم أطيل المضغ حتى أترك للباقيات فرصة الأكل دون أن يشعرن بأنى إنما أتظاهر بالأكل . كانت هذه العملية تضغط على قلبى بألم ، لولا نبل التضحية ، لكاد يهدمنى . غير أنى نظرت عفوا إلى زوجتى نظرة شاردة عجلى ، فأحسست بأنى أختنق . والتفت عامدا إلى أمى فإذا بقلبى ينخلع ، وكأننى من هول الألم فى ذهول عن الألم ، كانت كلتاهما تتكلف الطعام وتعانى التجربة الهائلة التى كنت أعانيها ، كان كل منا يخدع نفسه ويضلل رفقاءه ، أفبعد هذا تظنين أن فى خدمة

البيوت مذلة ومهانة . وأية عزة أبقتها لى نظرتى إلى أمى وإلى زوجتى، وهما تتظاهران بالأكل . وتبطئان فى المضغ كأنما هما موكلتان بتنفيذ الحكمة الطبية «أطيلوا المضغ» فى دقة بالغة ، لقد عدت حينئذ طفلا ذليلا مسكينا يود لو يبكى ويسرف فى البكاء ، وأحسست بسهم يخترق أحشائى حين سمعت أمى تردد فى مسكنة وخضوع ، الحديث الشريف « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

قلت وأنا أغالب الدمع :

ـ أإلى هذا الحد المؤلم وصلت بكم الحال فى الريف ؟ ومع ذلك فأنا لا أفهم فيم يأسك وعلام الحزن ؟ الرأى عندى أن تعود إلى القرية الحبيبة . فاستأجر لك فدانا .

ـ وبعد ؟

ـ ازرعه قمحاً ثم ذرة ، تأكلون منهما طول العام ، ثم ازرعه فى المرة الثالثة قطناً لسداد الإيجار ، وأجر السماد والعمال .

ـ كل هذا جميل ومعقول ، بشرط أن نسمعه ونقوله ، أما إذا تعدى القول إلى العمل ، فهنا يتبخر المنطق . ويطير العقل ، وتسخر منا الحقيقة المروعة . لكى أستأجر فدانا

يجب على أن أدفع عشرة جنيهات للمالك ، وخمسة للعمال حين الرى وحين محاربة الحشرات ، وحين الجنى والحصاد . وثلاثة جنيهات للسماد فى ثلاث زرعات ثم يجب أن يكون لدى حمار وجاموسة . وأن يتوافر لهما طعام ليتنا نجده لنأكله نحن . ؟)

فإذا دفعت هذا كله من المحصول ، فلن يبقى لنا إلا ما يكفينا شهراً واحداً مع شديد التساهل ، خبزا فقط ، ثم لا كساء ولا طعام ، وهذا هو ثمرة جهاد عام طويل .

يا سيدتى ، أنا لم أفر من القرية إلى المدينة إلا بعد أن أجهدت نفسى فى التفكير فاحتسبيها يدا عند الله ، لن ننساها لك ، وابحثى لى عن عمل خادم ، فسأجد ما آكله ، وأبعث أجرتى إلى من أشقاهم الله بى ، وبعد فلست أطلب إلا عملا شريفا ، لا أمد يدى للسؤال . وإنما أبحث عن عمل أعيش به .

* * *

قام المسكين إلى الصلاة . فالفلاح المصرى يذكر ربه فى السراء والضراء ، يذكره فى الأولى شاكراً ، وفى الثانية راضياً ، قام وتركنى أفكر :

وهاجمتنى الذكريات . . .

ذكرت أن هذا البائس هو أحد الآلاف الكثيرة التى نزحت وتنزح من الريف إلى المدن ، فى سبيل لقمة ذليلة متواضعة .

ذكرت ثلاثة من أقوى شبان قريتنا ، جاءوا منذ شهرين إلى القاهرة ، واشتغلوا فى أحد المخابز ، يحملون (العجين) من البيوت ويعودون به خبزاً فى آخر النهار قانعين بثلاثة قروش لكل منهم وخمسة أرغفة شهية .

وذكرت أخوين من جيرتنا فى القرية ، يهزآن بالضعف ويحتملان أشد الجهد ثم لا ترى للتعب أثراً عليهما ، تركا القرية واشتغلا بخدمة أسرتين ، فأما أولهما ، فيحمل سيده الطفل ويدلله ، ويسير بسيدته الشابة التلميذة بالسنية الثانوية ، وأما الآخر فيحمل السلة ويذهب إلى السوق ، يشترى الفجل والبصل والخيار .

ومددت يدى أمسح دمعة حارة ، ألهبت وجنتى حين ذكرت أبا إحدى صديقاتى الريفيات . كان فى رغد من العيش وسعة يعيش على غلة أفدنة ثلاثة ، ويعمل مع ولديه فى الحقل راضين قانعين ، ثم ألحت عليهم الأزمة فاستحال عليهم دفع

الأموال الأميرية . ثم أعلنهم المحصل ألا فرار من بيع أفدنتهم - وهى حياتهم - بالمزاد . فقر وعار فأين الرحمة ؟ رأتها أعينهم العمياء فى بنك رهونات . وفى عام واحد غلق الرهن ! فتشتتوا فى البلاد لم يعرف أحد مصيرهم ، إلا أنى رأيت أحدهم يتقدم إلى ذليلا بأوراق اليانصيب ، يا سبحان الله ! ألئن باع فى يومه خمس ورقات ، فكم يكون مكسبه فيها ؟ قرش ، قرشان ؟ اللهم رحمتك !

يا بائع الفجل بالمليم واحدة ☆ كم للعيال وكم للمجلس البلدى ؟

دسست فى يده خمسة قروش ، فتفرس فى وجهى ثم قذفها على الأرض ، وفر من أمامى كالمجنون لا يعى .

ثم ذكرت أيضاً خمسة شبان أعرفهم كانوا يشتغلون فى زراعة أحد أقاربى ، واستغنى عنهم ، فجاءوا إلى القاهرة ، وانضم أربعة منهم فى سلك حرفة عجيبة ، يحملون الخيار فينادى أحدهم (خيار يالوبيا) فيرد الباقون بصوت واحد فيه حزن رغم ما له من جرس (عشرة بقرش) .

آه ! إن صوتهم لا يزال يلاحقنى فى كل مكان داويا حزيناً متهدجا . وأما الخامس فيبيع أكياس النفتالين . ومحله المختار سلم (الترام) . وأقسم لقد سمعته بأذنى عند باب الخلق

يقول : « ما حدش عنده نفتالين فى البيت ؟ نا كل إحنا وأولادنا النفتالين بأه يا ناس يا هوه »

* * *

والآن إلى مصر المسكينة . . .

أرأيتم هذا المصير المحزن الذى يصير إليه أبناؤها الأتوياء؟

لقد فكرنا طويلا فى جيوب الأجانب ، تلتهم الثروة المصرية ، فجاهدنا فى تشجيع الصناعة المصرية ، وفكرنا طويلا فى البحر الأبيض المتوسط ، يفغر فاه فيلتهم ماء النيل أحوج ما نكون إليه ، فأنشأنا الخزانات وأقمنا القناطر والسدود .

وفكرنا فى المخدرات تنقد ناراً ، وقودها ثروة أبناء مصر ، فتبخر قواهم وعقولهم وحيويتهم ، فأنشأنا مكتب المخدرات ، تساعده مصالح الحدود وخفر السواحل والطيران .

وفكرنا فى كل شىء ، إلا شيئا واحدا هو مع شديد الأسف أخطر الأشياء .

لم نفكر فى المدن تجتذب شبان الريف ، لأن انحطاط مستوى المعيشة فى القرية ، يغرى أبناءها بالنزوح إلى المدينة ، وفيها عيش وماء نتى ، وفيها لهو ميسور .

لم نفكر فى الأعمال الحقيرة ، يشتغل بها أقوى شبان الريف ، وأقدرهم على خدمة مصر .

إنهم يدللون الأطفال ويخدمون فى البيوت فهل يسمع المصلحون ؟ وهناك فى الريف ، أرض خصبة غنية تحتاج إلى سواعدهم ، وثروة مخبوءة فى الأرض ، تريد أبناء الريف الأشداء .

وإذا مضينا فى تغافلنا عن هذا الخطر ، فمن للقرية والزراعة إذن ؟ ألا فاسمعوها كلمة صريحة : إن استمرار نزوح الشبان من القرية ، واحترافهم أبسط الحرف فى المدينة ، سيؤدى بنا الى المجاعة ولن يشفع لنا حينئذ خصب التربة المصرية ، وسحر ماء النيل .

لقد اشتغل بعض الشبان فى مخبز ، وآخرون فى خدمة البيوت . فهل خسروا شيئا ؟ لا ، فهم يعيشون عيشة إن لم تكن أفضل من معيشة الريف فلن تنحط عنها ، ويشربون ماء نقيا منعشا ، ومصر هى التى خسرت وتخسر ونحن لا هون .

والآن أتساءل ، إذا كان هذا هو مقدار النازحين من قريتنا ، وهى فى صميم (المنوفية) أخصب بقاع العالم ، فما هو

حال قرى شمال الدلتا والوجه القبلى ؟

ثم لا تنسوا أن أبناء الصعيد الذين يملئون المدن وخاصة مدينتى مصر والإسكندرية ، هم من صميم الريف .

حدثنى أحد كبار الملاك فى مديريتى الشرقية والدقهلية قال : إن مائة فدان من أرضنا لا تنتج ما تنتجه عشرة أفدنة من اراضى المنوفية . .

لا تحسبوه مغاليا .

والعلة ليست ضعف الأرض كما توهمت وكما تتوهمون . . بل هى فى قلة الأيدى العاملة .

مصر بلاد زراعية ، وستظل هكذا ما عبد الله فى الأرض ، ثروتها فى أرضها ونيلها ، وحياتها فى يد الفلاح الجائع المحروم ، فلا تنسوا هذا واذكروه دائما .

هل نلوم الفلاح ؟ إننا إذن نكون كمن :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له ، إياك إياك أن تبتل بالماء !

أصلحوا القرية فيتشبث هو بالبقاء فيها ، مهدوا له عيشا سهلا ميسورا فى تواضع ، فلا يستبدل به حياة المدن . إنه يعشق الريف وهو يتركه محسورا ملتاعا بعد أن تعييه الحيل ، وبعد أن يجد العيش فيه غير مستطاع .

حين تفكر الحكومة فى مصايف الأطفال ، يجب ألا تنسى أن فى الريف أطفالا قد لا يجدون كسرة أو سترة ، يذهب الرمد بجمال عيونهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة. وحين تفكر مصلحة السكك الحديدية فى تسهيل النزهة لمتوسطى الحال ، بقطر البحر والنزهة ، يجب ألا تنسى أن فى الريف رجالا مصريين ، يشربون الداء مع الماء ، ويحيون حياة لا نرضاها لحيواناتنا .

إن أول الواجبات هو تيسير العيش الممكن ، لمن صارت حياته أقل من الممكن .

نحن لا يضيرنا أن نقضى الصيف بعيداً عن السواحل فلكل بلدة فى مصر مغانيها ومناظرها الجميلة ، ولمصر فى ليالى الصيف هواء منعش جميل ، ولن تفارق أرواحنا أجسادنا إذا لم تسعفنا الحكومة بتسهيل وسائل الترف لنا ، ولكننا جميعاً ، بإهمالنا الفلاح ، نخسر اليد العاملة التى تمدنا بالطعام ، والخادم القنوع الأمين الذى يفنى فى سبيلنا صابراً صامتاً . وكلنا فى الخسارة سواء .

إن الفلاحين ـ سواء رضينا أو كرهنا ـ هم أعضاء من جسم الأمة ، لا يجوز التغافل عنهم وإلا فالويل لنا منا .

فلنفكر جديا فى مصلحة القرية وإصلاحها ، ولنصلح حال الفلاح بمال الفلاح ، فإن مهزلة المهازل أن يكون لنا معشر سكان المدن الحقوق ، وعلى الفلاحين الواجبات .

القرية ! إن فيها مقتل الأمة ، كما أن منها حياتها .

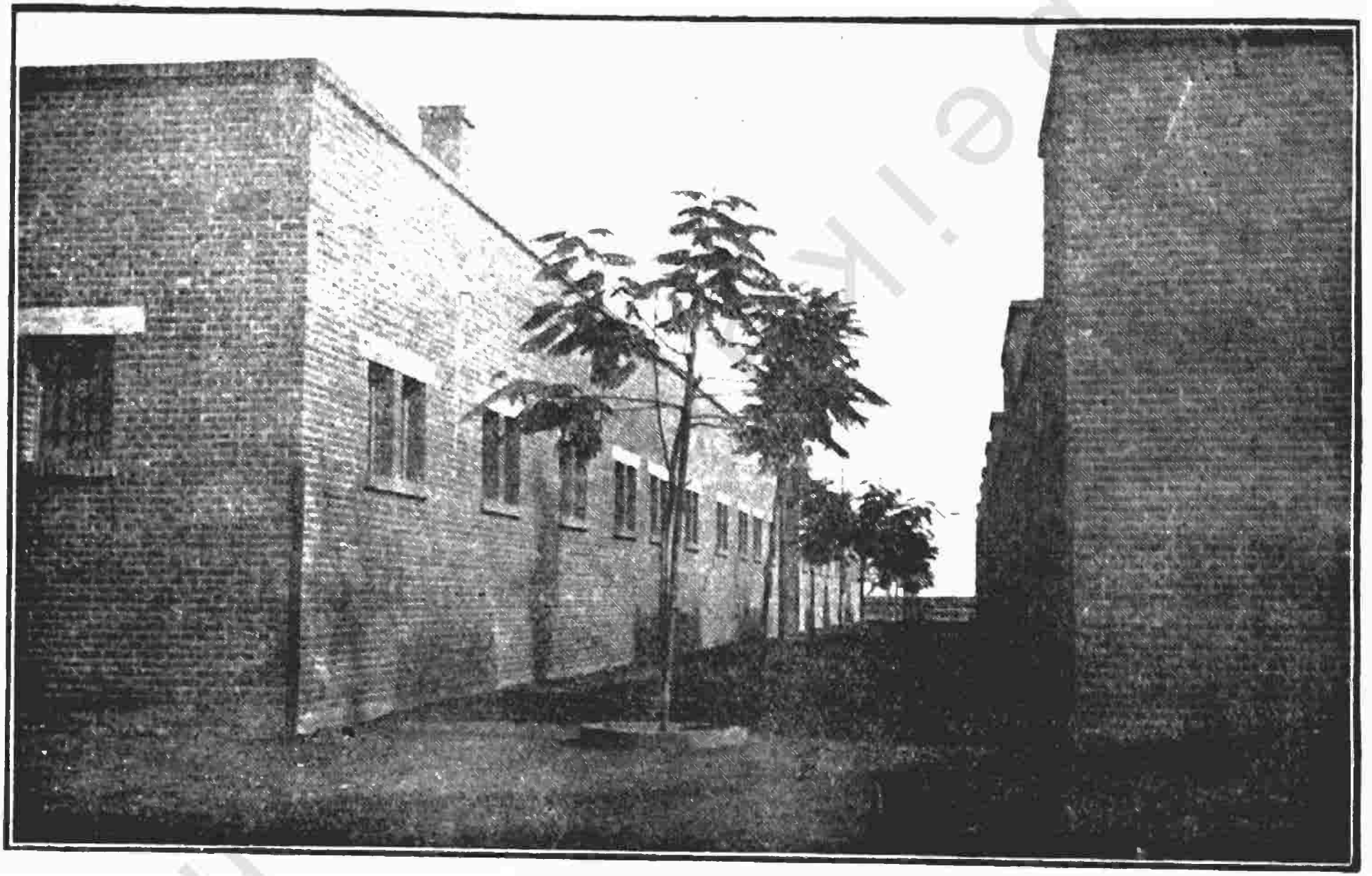

ماذا أعددنا للغد ؟

أفتغفر لى صديقتى القروية ، جهرى بما يغمرها من فقر وشقاء ؟ لقد تشبثت بى يوم الرحيل ، تسألنى فى تواضع ذليل أن أنسى الصور المحزنة التي طالعتنى فى القرية وأن أذكر دواما جمال الريف وسكونه وفتنته ، حتى أحن إلى زيارته ، ثم تفرست فى وجهى ، وأحسبها لمحت فى عينى صورة الألم الدفين فأشاحت بوجهها ثم قالت وكأنها تحدث نفسها : ستشغلين عنا وسنشغل بك ! متى العودة ؟ هل أطلب محالا إذا سألتك أن تنسى شقائى وشقاء الريف وألا تدعى تلك الذكرى تفسدك علينا وتفسد عليك حياتك ؟

وتحرك القطار وهو يلهث فى حشرجة بطيئة ، وظلت هى تشير بيديها إلى أن ابتلعها الظلام ، وبذلت مجهوداً جباراً لأنسى القرية فلم أوفق ، كانت الصور التى شاهدتها هناك ، تتتابع سريعة أمام مخيلتى ، مستلة مستقرة ، مستبدة بأفكارى .

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٨ من أغسطس سنة ١٩٣٥

ويح الفتاة التعسة ! إن كبرياءها تخفى الكثير من الألم العساف وإن لها لجلداً عجيباً ، كان أبوها يملك ثلاثة أفدنة يوم بنى بأمها ، وأحاطت به ظروف عصيبة كفيلة بابتلاع عشرة أفدنة وعشرين ولكنه ظل محتفظاً بها حتى اليوم ، بعد أن كلفه ذلك ثمناً غالياً . واليوم ؟ لقد أصبح رب عائلة كبيرة فله ابنته الشابة وابنه المراهق ، وثلاثة أطفال ، وقد مات أخوه ولم يخلف شيئاً إلا زوجة حزينة محطمة وأربعة أولاد أذلهم اليتم والفقر ، والرجل يعول هؤلاء وهؤلاء بأفدنته الثلاثة .

وتلك مسألة المسائل فى الريف اليوم ، فالأراضى الزراعية فى مصر لا تزداد ، بينما يزداد عدد السكان فى سرعة عجيبة . ومصر التى تبلغ مساحتها حوالى مليون كيلو متر مربع لا يصلح للزراعة منها إلا « ٣٢٠٠٠ ك م م » أو أقل من ٣٪ من المساحة الكلية. وهذا الجزء الصالح للزراعة يسد حاجة عدد محدود من السكان ، ويزدحم بالسكان إلى حد كبير ، فأكثر من ٩٩٪ منهم يسكنون فى الأراضى الزراعية المحدودة والموزعة فى الوادى والدلتا .

ثم إن هذه الآلاف المعدودة من الكيلومترات

المربعة الصالحة للزراعة ، موزعة بين الأفراد توزيعاً عجيباً ، فعدد الذين يملكون من عشرين فداناً إلى مائة ومائتين قليل فى حكم النادر ، بينما يتضخم عدد كبار الملاك الذين يملك الواحد منهم أقل من مائتى فدان إلى عدة آلاف ، تضخما هائلا لا يشبهه فى الكثرة إلا عدد صغار المزارعين البؤساء ، الذين يملك الواحد منهم أقل من خمسة أفدنة ، وأحسب أن ضخامة عدد كبار الملاك توهم البعض منا بأننا قوم أثرياء ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، ففى هذا التقسيم دلالة على فقد التوازن فى تملك الأرض الزراعية ، وعلى أن العدد الضخم الذى يعبث بالنضار ويتراكم المال لديه إلى حد الحيرة فى كيفية إنفاقه ، يقابله عدد ضخم كذلك ، لا يكاد يجد الكسرة من الخبز يتبلغ بها .

وفئة صغار الملاك تسير إلى نهاية أليمة ، إذا لم يوفق أولو الأمر إلى إيجاد حل حاسم عاجل ينقذها . . . إن الموظفين المصريين مثلا ، ينعمون بحياة مترفة إذا قيست بحياة الفلاحين الأشقياء ، ومع هذا نحن نصغى دواماً إلى صيحات عالية ، يشكون بها من إطالة فترة العلاوات ، نصغى إلى شكواهم وهم يتساءلون كيف يسير المرتب سيراً بطيئاً

وأسرة الموظف تزداد فتكثر مطالبها ؟ بينما تنبعث من الريف صيحات خافتة لاهثة ، ترسلها حناجر منهوكة أضعفها المرض وذهب بقوتها الشقاء ، تتساءل هى الأخرى كيف يعول الرجل أسرة يزداد أفرادها كل عام بالزواج والتناسل ، بقطعة أرض لاتزيد إن لم تنقص ؟ تنبعث هذه الصرخات خافتة ولكنها لاتصل إلى آذاننا ، إما لأننا عنها فى شغل ، وإما لأنها لا تملك من الوسائل ما يساعدها على إبلاغ صرخاتها إلى الرأى العام ، قوية عالية ، فيها قوة الحق ومرارة الاحتجاج ، ودوى الشقاء .

* * *

لم تعد الأرض مصدر ربح لصغار المزارعين ، كما اعترف بذلك سعادة وزير المالية القائم على ثروة البلد ، والفلاح اليوم يدفع الضرائب التى كان يدفعها منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا يزال يسرى عليه الأمر العالى الذى وضع فئات الضرائب على أساس ٢٨ر٦٤ ٪ من قيمة الإيجار المقدرة بمعرفة لجان شكلت خصيصاً لهذا الغرض فى عامى ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ لا بمعرفة لجان مركزية تشكل

فى كل عام . وتقدر الإيجار تبعاً للزمان والمكان . وفى القرية يحيا المزارع حياة أليمة لا تساعده على كثرة الإنتاج أو على الاحتفاظ بمستوى إنتاجه العادى ، وتفترسه الأمراض ، وتلتهم الآفات الزراعية ثروته . فإذا استطاع بعد هذا كله أن يخلص بأرضه من براثن الأزمة ، وأنياب المرابين ، فذلك مجهود جبار نقنع به منه وتلك نتيجة سارة يشكرها هو لله جل شأنه .

وفى هذا جواب لمن يتساءل كيف لا تزداد ثروة الفلاح بعمله وباستغلالها . اطلبوا الماء من الحجر الصلد واسألوا الجبل أن ينتقل من مكانه ، ولكن لا تسألوا الفلاح أن ينمى ثروته . إن الضرائب تبتلع نصف إنتاجه وثمن المحصولات فى تدهور مستمر . والفلاح بشر ، ولاحتماله حد معقول لا يتعداه . هذا الحد أشبه بما يعرف فى علم الطبيعة بدرجة نهاية الضغط ، حيث تتهشم الأجسام عندها مهما عظمت صلابتها . والفلاح المصرى كما يقول سعادة وزير الزراعة « وهب صبرا على العمل وقناعة فى المطالب ، وبساطة فى العيش » ولكنه لم يوهب قوة فوق البشرية . فحسبنا منه إذن أن يحافظ على ملكيته الصغيرة

أما أن نعجب لعدم نمائها . فاسألوا عن ذلك حياة الفلاح . ولكن لا تسألوا الفلاح !

ونحن نحيا فى بلاد تزدحم بالسكان إلى حد التخمة ، وتكاد تضيق بنا لولا رحمة الله ! والفلاح يتزوج ، ويفعل ذلك مبكراً لا يعوقه عن الزواج فقره وعوزه مهما اشتدا ، والقرية لا تعرف شيئا اسمه أزمة الزواج ، فيكفى لصداق الفتاة ما يمكنها من شراء لوازمها الضرورية المتواضعة ، ويكفى لتأثيث البيت صندوق خشبى للملابس ، وحشية من القطن نادراً ، ومن قش الأرز حينا ، وقطعة من الحصير أحيانا ثم عدد قليل من الأوعية النحاسية تدخرها الفتاة قبل أن تتزوج .

والفلاح يرغب من النسل ، لا يزهده فيه عوز ولا فاقة ، ولا يرغبه عنه جوع واحتياج . ولست تدرى السر فى ذلك ! قد يكون لأن عيشه بلغ من الضعة حدا لا يمكن تجاوزه ، فوجود الأولاد لن يزيد فى شقاء عيش هو غاية الشقاء ، أو كما يقول الشاعر :

ولو أنى استزدتك فوق ما بى
من البلوى لأعجزك المزيد .

ولو عرضت على الموتى حياة

بعيش مثل عيشى لم يريدوا .

وقد يكون لأن الفلاح يحيا على الفطرة و يؤمن بالله ، و يثق فى أن خالق الطفل كفيل برزقه ، وأن المولى عز وجل أرحم بالولد من أبيه وأمه .

وفى سرعة عظيمة يزداد عدد سكان القطر المصرى ، ولسوف يزيد من هذه السرعة ارتقاؤنا فى الشئون الصحية ، والنقص الظاهر فى الوفيات تبعا لذلك ، ويقابله دون شك زيادة فى المواليد ، ولو كانت هذه الزيادة ناشئة من ازدياد الأسر الغنية الموفورة الرزق لما قابلناها إلا بالغبطة والحمد ، ولكن الأغنياء فى مصر هم المتعلمون فى الغالب ، ولهم من مالهم وعلمهم مايجعلهم يتحكمون فى عدد الأولاد إلى حد ما ، وأغلب الشبان المترفين لا يعرفون الزواج المبكر ، حيث تلهيهم عنه ثروتهم التى تفتح لهم أبوابا من اللهو والمتعة لاحظ للفقير فيها ، بينما الأسر الفقيرة تزداد و يزداد فقرها وكل زيادة فى عدد سكان البلاد هى زيادة فى عدد مواطنينا الفقراء .

وانى لألمح شبح العاصفة فى نهاية الأفق يقترب فى بطء

ولكن بالتأكيد ، فهل نلهو عن الخطر كعادتنا حتى نصبح ونمسى فإذا بمصر تضيق بسكانها . أم ماذا أعددنا لهذا الغد الخطير ؟

ليس لمصر مستعمرات حتى يجد أبناؤها مكانا لعيشهم ، وحتى السودان الشقيق ابتلعته السياسة الانجليزية فى جوفها ، وتمخضت لنا عن نظام هو أعجوبة الأنظمة فى القرن العشرين . فرضت علينا أتاوة ندفعها سنويا لحكومة السودان ، كأنما هى الجزية التى كانت الأمم المغلوبة على أمرها تدفعها للدولة الحاكمة الغالبة ، ويبقى لنا بعد هذا كله ، قطعة واحدة من الأرض يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالا والسودان جنوبا والبحر الأحمر شرقا والصحراء غربا ، وفى هذه القطعة سكن أبناء مصر فى أوائل القرن التاسع عشر حين كان عددهم مليونين ، وفيها سكنوا فى أواخر ذلك القرن حين كان عددهم لا يتجاوز سبعة ملايين ، وفيها سكنوا فى الربع الأول من القرن العشرين حين كان عددهم اثنى عشر مليونا ، وهم يسكنون فيها الآن بينما يتجاوز عددهم ستة عشر مليونا ، وفى تلك الحالات كانوا يستغلون المزرعة المعروفة ، التى لا تنمو إلا ببطء عجيب . فهل سيستغلون القطعة نفسها

حين يصبح عددهم عشرين مليونا فى القريب وثلاثين أيضا؟

أنا أضع الآن أرقاما رسمية توضح مقياس زيادة السكان ، التى تكاد تتضاعف فى فترات متقاربة ، كما حدث فى سنة ١٨٤٦ حين زاد عدد السكان بقدر الضعف فى ربع قرن ، ولمصلحة الصحة برنامج صحى للمستقبل ، لا أشك فى أنه سيجعل الزيادة أكثر إسرافا وسرعة ، وهذه الأرقام وحدها تدعو الى التأمل وتقتضى منا اليقظة :

عام	عدد السكان	مصدر الإحصاء
١٨٠٠	٢٠٠ر٤٦٠ر٢	من الحملة الفرنسية
١٨٢١	٤٠٠ر٥٣٦ر٢	من كشوف الضرائب
١٨٤٦	٤٤٠ر٤٧٦ر٤	من تعداد المساكن
١٨٨٢	١٣١ر٨٣١ر٦	من تعداد الأفراد
١٨٩٧	٤٠٥ر٧٣٤ر٩	من تعداد الأفراد
١٩٠٧	٣٥٩ر٢٨٧ر١١	من تعداد الأفراد
١٩١٧	٩١٨ر٣٥٠ر١٢	من تعداد الأفراد
١٩٢٧	٨٦٤ر٢١٧ر١٤	من تعداد الأفراد

(الإحصاء الأخير)

ثروة مهملة

طال حديثي عن الريف ولكن ماحيلتي؟ كلما حاولت الصمت التماسا لتهدئة ذهني المكدود، شعرت بأني إنما أطفىء النار بالزيت. وأقسم غير حانثة، أنني يوم ذهبت إلى الريف لم أكن أنوي أن أكتب حرفا واحدا لأن الطبيب أمرني ألا آخذ معي كتابا واحدا، وأن أنقذ نفسي من أكداس الكتب وضوضاء المدن، ولكن كل ساعة قضيتها في القرية، وكل دقيقة، كان لها حديثها وشقاؤها، وأثرها البعيد القرار في نفسي، وكانت كل خطوة في أرض القرية، تنكشف لي عن شقاء أليم يصعب تصوره. ولقد أفلح الطبيب وأفلحت أمي في الحيلولة بيني وبين الكتب، ولكنهما عجزا عن شل ملكة التفكير في دماغي، وسلب قوة الإبصار من عيني! كان يجب أن أكون ساذجة عمياء حتى لا أفكر ولا أرى، أما وقد كنت غيرهما، فقد رأيت وما أهول ما رأيت! كنت أشهد شقاء القرويين، وأنا

نشرت في الأهرام الغراء في ١٧ من أغسطس سنة ١٩٣٥

صامتة مكتوفة اليدين ، ثم ما كدت أعود إلى المدينة حتى شعرت بالأفكار تزدحم فى رأسى وتشقينى وتريد انفجارا ففزعت إلى قلمى ، أحاول أن أنفث فيه بعض الآلام المتجمعة فى رأسى ، وأن أخفف به شيئا من الضغط الهائل الذى أشعر به جاثما على صدرى وفى دماغى .

* * *

مساحة القرية : ٣٥٤ فدانا .

عدد السكان : ٦١٣ نسمة .

عدد المزارعين وأفراد عائلاتهم : ٥١٣٢ نسمة .

المتوسط بالنسبة للمزارعين ١٤ نسمة لكل فدان تقريبا .

لم أكد أشهد هذه الأرقام حتى زالت دهشتى من فقر قوم يمشون على أرض من الذهب : أربع عشرة نسمة يأكلون ويكتسون ويدفعون الضرائب ويطعمون حيواناتهم بريع فدان واحد ؟ إن الفدان يؤجر هناك بثمانية جنيهات ، يدفع الفلاح منها ١٦٤ قرشا ضريبة أطيان وتسعة عشر قرشا ضريبة لمجلس المديرية (١٢ ٪ من ضريبة الأطيان) وثلاثة وثلاثين قرشا ضريبة للخفر ، ويبقى بعد هذا كله مبلغ يزيد قليلا عن خمسة جنيهات ونصف . أمن

السهل أن يتصور أحدنا إمكان كفاية ذلك المبلغ التافه لمطالب شخص واحد عاما طويلا ؟ كلا بالتأكيد ، ولكن من السهل أن ندرك جميعا إلى أية درجة انحط عيش الفلاح ما دام ذلك المبلغ هو قوام حياة أربعة عشر نفرا !

وفى الغد ؟ سيزداد عدد سكان القرية دون شك ؛ وستبقى مساحة القرية كما هى دون أقل ارتياب ، فمن لى بعقل آخر أتصور به إمكان حياة الفلاحين فى ذلك الغد القريب ؟

لقد بينت فى كلمتى السابقة كيف يتضخم عدد السكان فى سرعة غريبة ، وكيف يزداد عدد مواطنينا الفقراء بازدياد عدد سكان القطر ، لأن الفقراء والفلاحين هم أسرع المصريين تكاثرا ، وأبعدهم عن فكرتى الزواج المتأخر وتحديد النسل ، كما بينت أنه بينما تزدحم الأراضى الزراعية فى الوادى والدلتا ازدحاما لا طاقة لها بأكثر منه ، توجد أراض أخرى فى مصر أيضا ، لا تكاد نسبة عدد السكان فيها تبلغ نسمة واحدة لكل ثلاثة عشر كيلو مترا مربعا .

ليست المسألة مسألة الأرض التى نحيا فوقها ، وإنما

يكمن الخطر فى الأرض الصالحة للإنتاج، فالقرية التى تسكنها مائة أسرة وفيها مائتا فدان مثلا، ستبقى كذلك حتما من حيث المساحة، حين يزداد عدد الأسر إلى مائتين.. ترى هل يحتمل الفلاح شقاء أقسى مما يتخبط فيه الآن؟ ونحن لا نملك حيال هذه السرعة العجيبة إلا أحد حلول ثلاثة. أولها تحديد النسل حتى نحفظ النسبة بين عدد السكان، وبين الأرض الصالحة للإنتاج، فنحفظ التوازن بين حاجة الاستهلاك والكمية المعروضة له، وثانيها استغلال ثروتنا غير الزراعية، لأن سياسة الاقتصار على استغلال الثروة الزراعية لم تعد صالحة للمنافسة فى عصرنا الحافل بالاضطراب، ولن تقوى مصر بها على الكفاح فى المحيط الاقتصادى العالمى المضطرب. وثالثها إصلاح الأراضى البور حتى نجد منفذا لتضخم عدد السكان وحتى يكفى الإنتاج لسد حاجة المستهلكين الآخذ عددهم يقينا فى الازدياد.

* * *

فأما تحديد النسل فلا سبيل إلى البحث فيه، لأن هذه المسألة تتصل اتصالا وثيقاً بالناحية الدينية، ولأن

الفلاح كما قلت يرغب فى النسل ، ولا يزهده فيه عوز ولا فقر ، لثقته فى الله عز وجل من ناحية ، ولانحطاط مستوى معيشته ، انحطاطاً كلياً من ناحية أخرى . على أن تحديد النسل لا يخلو من خطر ، من حيث الناحية الاجتماعية ، فليس من المعقول أن تتقدم بنا الأيام وعددنا لا يتغير ولا يزداد . ثم إن الأمم التى أخذ أبناؤها بهذا المبدأ ، عادت حكوماتها تجأر بالشكوى من قلة النسل ، كأنما هى تخشى الانقراض . وفى إيطاليا قانون يمنح الأسرة إعانة كلما ازداد عدد أفرادها بالتناسل ، وينظر إلى رب العائلة نظرة خاصة فى الوظائف وأجور المساكن ، وفى ألمانيا قضى هتلر بأن تمنح العاملة إعانة لتتزوج وتترك عملها ، ولها أن تحل خطيبها العاطل محلها ، ولها أن تؤثث بيتها على أن يدفع الثمن أقساطاً متباعدة معقولة ، لا تشعر بضيق أو إرهاق ، وقد يبدو هذا كعلاج للبطالة ، ذلك حق ، ولكنه فى صميمه تشجيع لإنشاء الأسر الجديدة ، وازدياد عدد الأفراد .

وفى فرنسا تمنح الأم إعانة معينة إذا بلغ عدد أولادها حداً معيناً ثم يزداد مقدار الإعانة بازدياد عدد الأولاد .

ونحن أمة تجتاز الآن فترة انتقال حافلة بالقلق والاضطراب ، وعلى كتفيها أعباء ثقال من أثر الجهاد فى سبيل الحياة منذ عهد البطالسة حتى مارس سنة ١٩٢٢ ، وفى سبيل الحرية والاستقلال غير المزيف حتى اليوم والغد . ولابد لها فى هذا الجهاد من قوة معنوية تستمدها من أبنائها وقد يكون من الجناية عليها منع التكاثر فى الأولاد .

***

أما استغلال ثروة مصر غير الزراعية فلست أقصد بها مجرد الاهتمام بالصناعة والتجارة ، وإنما يجب أن يتعداهما إلى الثروة المعدنية والحيوانية ، ومصر غنية بهما إلى حد يجهله الكثيرون . إن ارتفاع سعر الذهب حالياً فرصة يجب ألا ندعها تفلت من أيدينا ، فمناجم الذهب فى الصحراء الشرقية أهمل استغلالها لعظم النفقات لا للشك فى وجود الذهب بها . وتلك العقبة لم يعد لها أثر منذ ارتفع سعر الذهب ، والأمر لا يحتاج إلا إلى شىء من العزيمة والمثابرة ، ثم إن الأبحاث التى ساهمت فيها مصلحة المناجم

والمحاجر ، أثبتت وجود خامات الزنك والرصاص بالقرب من القصير ، ويتراكم حجر الزبرجد فى البحر الأحمر إلى درجة كبيرة ، وحجر الزمرد جنوب القصير ، هذا إلى وفرة البترول والأحجار فى مصر .

فأما الثروة الحيوانية ، فيكفى دليلا صادقاً على إهمالنا إياها كوننا نستورد سنوياً من الأغنام ١١٫٠٠٠ رأس ثمنها ١٠٠٠٠ ج م ومن الجبن ٢٤٠٠ طن ثمنها ٢٠٨٠٠٠ ج م ، ومن الأسماك المملحة والمحفوظة ٤٧٢٧ طنا ثمنها ٢٠٨٠٠٠ ج م ، بينما تملك مصر من الماشية عدداً ضخما يكفى لتوفير تلك المبالغ الطائلة لو أحسن استغلاله ، ففى إحصاء وزارة الزراعة لسنة ١٩٣٤ ما يأتى :

٢٩٢٠٣٤ ثوراً و ٦٣٢١٧٤ بقرة فتكون الجملة ٩٢٤٢٠٨ رأسا .

و ٤٣٠٨٣ ذكر جاموس و ٨٤٤٤٩٣ جاموسة فتكون الجملة ٨٨٧٥٦٦ رأسا .

و ٢٧٣٣٣٧ خروفا و ١٣٤٣٠٣ شاة فتكون الجملة ١٤٠٨٧٤٠ رأسا .

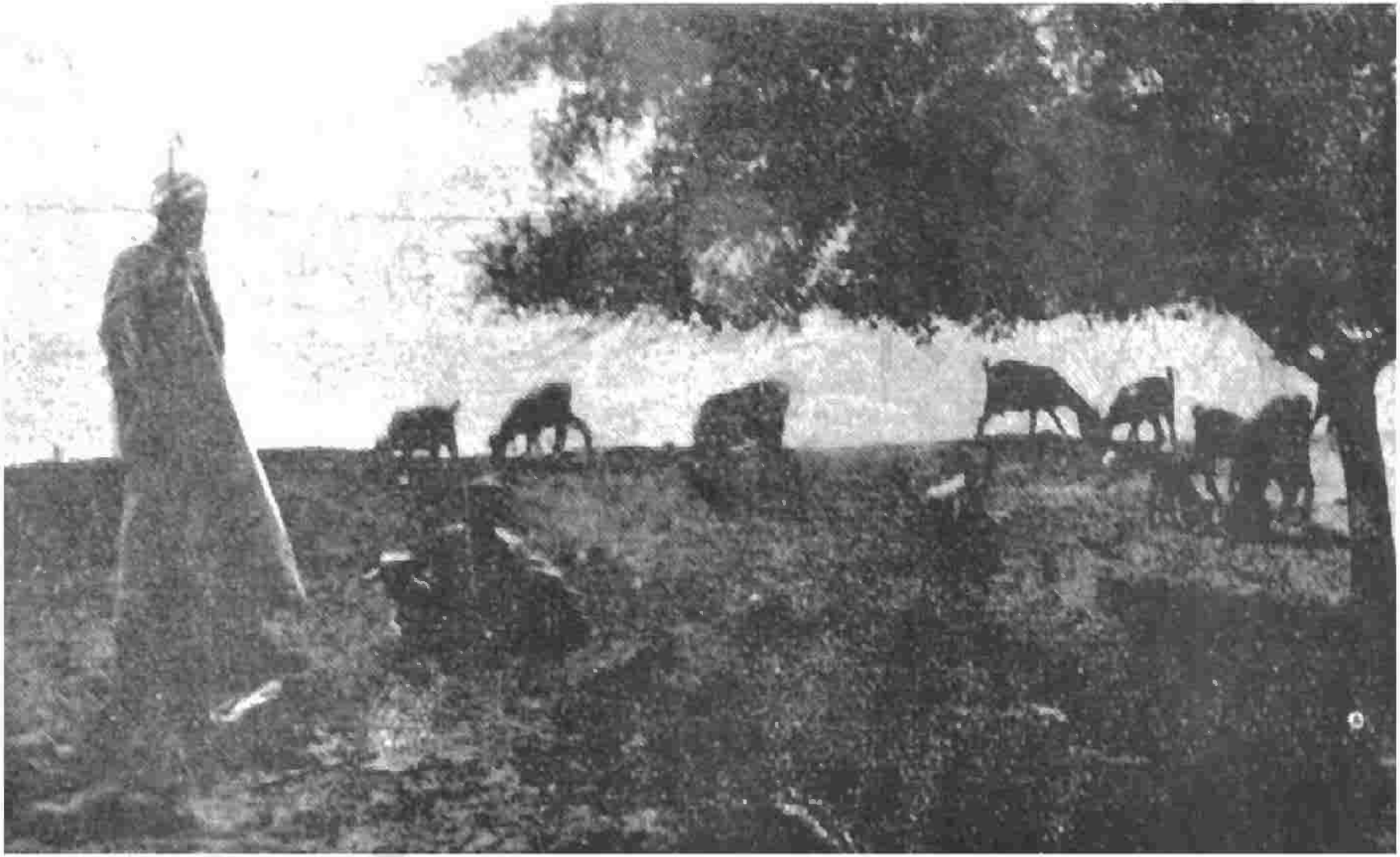

الراعي

و ١٨٠١٣٤ جديا و ٥٠٨٢٢٧ عنزة فتكون الجملة ٦٨٨٣٦١ رأسا .

وهذه الأرقام تشير إلى أنه قد آن الأوان للاهتمام بصناعة منتجات الألبان ، كصناعة رئيسية مضمونة الربح موفورة الخامات ، ثم إن الأسماك تتراكم فى النيل والمياه البحرية ، وفى البحيرات المصرية ، وقد شاهدت بعينى رأسى أكواماً من السردين فى بور سعيد ، لا تجد من يشتريها ولو بأبخس الأثمان ، والسردين المصرى كما صرح سعادة خيرى باشا لا يقل جودة وصلاحية للحفظ ، عن الأنواع الأجنبية ، ويبقى لى بعد هذا كله أن أصرح فى حق ويقين ، أن للأجانب بعض الحق إذا « استغفلونا » واحتلوا أسواقنا الاقتصادية ، مادمنا نهمل موارد الثروة العجيبة فى بلادنا ، وإلا ففيم الشكوى من الفقر ، وموارد الثروة لدينا مفرطة شاذة ؟ وفيم سكوتنا عن استغلال الثروة الكامنة فى كل شبر من أرض مصر ومياهها ؟

لقد طال علينا الأمد ونحن نتغنى بمصر الزراعية ، ويبدو لى أن تلك الفكرة قد دعتنا إلى الاستكانة ، وحببت إلينا الدعة والسكون ، ولكن ها هو ذا الفلاح المصرى

يد مصر العاملة ، لم يعد فيه شيء من القوة يعينه على القيام بحاجة ملايين المصريين ، فحياته البائسة الشقية قد استنزفت كل ما فيه من قوة . وهي في طريقها إلى التهام ما احتازه من جلد واصطبار ، وهاهي ذي الأراضي الزراعية تضيق بسكانها اليوم ، وسيشتد ضيقها غدا ، أفما آن لنا أن نفسح المجال لصناعتنا المصرية كي تأخذ نصيبها من الحياة ، وتظفر بمكانها اللائق ؟

إن لبنك مصر من المجهود الجبار في إحياء بعض الصناعات ، ما يكفل ملء شيء من الفراغ العظيم في نهضة مصر الصناعية ، ولكن هناك بعض الصناعات التي تقوم على غير المنتجات الزراعية ، ولا تنال حقها من الرعاية والاهتمام ، ولست أشك في أن قليلا منهما ، كفيل بأن يبقى في جيوب المصريين مبلغ ٥٠٦٣٤ ج م متوسط قيمة الوارد من الأثاث سنويا . ومبلغ ٧٤٠٠٠ ج م ثمن ما نستورده من الأحذية . ومبلغ ١٥٣٠٠٠ ج م ثمن ما نستورده من الصابون المنزلي العادي . ويحضرني في تلك اللحظة ، حقيقة مؤلمة ذكرها حضرة الرجل المصلح فؤاد أباظة بك عن دمياط الصناعية ، عند افتتاح المعرض العام ١٩٣٠

حقيقة لا تزال تترك فى قلبى أثرا داميا كلما ذكرتها ـ وقليلا ما انساها ـ أكد ما معناه أن الأحذية المحلية تفوق الأجنبية جودة ومتانة . ولكنها لا تروج لأن بعض الأغنياء المولعين بالظهور الزائف ، يفتخرون بلبس الحذاء الأجنبى ، ويرون أن أحذية الشاذلى والرفاعى مثلا ـ هما صاحبا مصنعين للأحذية بدمياط ـ لا تأتلف مع أقدامهم الأنيقة الرشيقة . وقد رأى بعينيه أحذية مصرية ، مصنوعة فى دمياط ، تنزع بطاقتها الداخلية ليكتب عليها زورا وبهتانا أنها مصنوعة فى خارج مصر . وكل ما أرجوه أن يكون المصريون قد أدركوا الآن واجبهم نحو أمتهم ، وأن من غير المعقول أن تنهض صناعتنا . دون عطفنا وتشجيعنا ولو اقتضى ذلك منا بعض التضحية .

والأثاث المصرى أصبح يضارع الأثاث الأوربى . ويمتاز عنه برخص الثمن . ولم يعد ينقصه إلا الكثير من اهتمامنا وتشجيعنا .

* * *

والحل الثالث والأخير لمشكلة ازدياد السكان ، هو

إصلاح الأراضى البور . إن فى شمال الدلتا وحده ، مساحات واسعة من الأراضى البور تبلغ مساحتها نحو مليون فدان ، موزعة فى مديريات الدقهلية والغربية والبحيرة ، وهى لا تستغل ولا تنتج ولا تخفف شيئا من ضغط السكان فى الأراضى الزراعية . والى هذه الأراضى يجب أن تتجه بأنظارنا ، وأن نهتم بها كمنفذ للزيادة المطردة فى عدد السكان . لدينا الآن مئات من متخرجى مدارس الزراعة ينتظرون عملا ، وتحتشد فى أدمغتهم نظريات عملية يودون لو تتاح لهم الفرصة لتحقيقها عمليا . ولدينا مئات الآلاف من القرويين ، يريدون العيش ومن واجبنا أن نمهده لهم ، وينتظرنا فى الغد ملايين من المصريين يريدون مكانا جديدا ومنتجات أخرى ، ولئن أقعد الحكومة عن الإسراع فى إصلاح تلك الأراضى كلها قلة المال ، ومشاكل السياسة الداخلية والخارجية ، فإن الجمعية الزراعية الملكية ذات الأثر المشهود فى حياتنا الزراعية ، ترحب بالعمل ، وقد عرضت فعلا على أولى الأمر ، أن تمنحها الحكومة من عشرين ألفا إلى أربعين ألف فدان ، لتصلحها الجمعية بمعرفتها

وعلى نفقتها وبإشرافها ، وعرض خريجو مدارس الزراعة مثل هذا الطلب على الحكومة ، فلو تعاونت الهيئات الثلاث ـ الحكومة والجمعية وخريجو الزراعة ـ على إصلاح تلك الأراضى التى لا نستفيد منها شيئا ، لصارت فى القريب العاجل أراضى زراعية يدفع أصحابها الضرائب للحكومة ، وينتجون القطن وهو أكسير الحياة الذهبى للخزينة المصرية ، وقد تكون النتيجة إصلاح حال الفلاح الذى يهيم فى ظلمات الجوع والعوز والشقاء .

ترف بائع وشقاء أليم

ما أقسى شعور الشقى بمرور لحظات السعادة القصيرة التى تلوح فى حياته التعسة كالبرق يلمع لحظة فى السماء المظلمة ثم يتلاشى ! ولشد ما يعذبه شعوره بها وهى تمر سراعا مخلفة له مرارة الذكرى ولوعة الحنين !

لقد قضيت لحظات هادئة سعيدة فى بهتيم ، وهناك بين الفلاحات السعيدات كنت أنظر إلى ساعتى فى حركة عصبية مؤلمة ، وكنت أود لو أوقف عقربيها حتى لا تشعرنى دقاتها بأن الزمن يلتهم فى جوفه لحظات الهدوء والسعادة التى نعمت بها هناك ، لولا علمى أن ساعة الحياة تسير فى انتظام ، غير مكترثة بآلامنا وآمالنا إلا بقدر ما تكترث الرياح بذرات الغبار المتطايرة فى الفضاء ! ومرت الساعات وعدت إلى المدينة ، ولكن ظلت لى غيبوبة الحلم !

وانتزعتنى من أحلامى رسالة قصيرة من الآنسة « م . أحمد بالحوتية » حملها إلى بريد الأهرام الغراء صباح اليوم الثانى من سبتمبر . كان كل ما فيها « لن تبخلى علينا بلحظات

نشرت فى الأهرام فى ٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٥

قصيرة تقضيها فى قريتنا الحوتية على مسير ثلث ساعة من كوبرى الزمالك . نريد أن نراك وأن نلمس فى وجهك نظرة العطف التى يفيض به حديثك عن الريف ، ونريد أن نبكى بين يديك وأن نريك بؤسنا لا لتنقذينا منه ولكن لنشعر بعزاء الرحمة والحنان »

وساقتنى قدماى إلى هناك ، رغم يقينى أننى إنما أسير إلى البؤس والشقاء . لم يكن فى استطاعتى أن أصم أذنى عن النداء المتلهف الحار الذى فى سطور خطاب الأخت الفلاحة .

قضيت فيها ساعة واحدة ، وكأنما كانت وحدها عمراً كاملا من الشقاء ! لقد أثر فى قلبى ترحيب القرية وألهانى كرم لقاء أهلها عن التطلع إلى أجسامهم الهزيلة الشاحبة ، ولكنى لم أكد أتجول فى القرية ، وأشهد نوع الحياة الوضيعة الذليلة التى يحيونها حتى شعرت برغبة فى البكاء ! وحتى أيقنت أن من المحال أن تنهض مصر ، وفى جسمها تلك الأعضاء المريضة التعسة !

* * *

فلنعترف بريائنا !

إن فى الكثير من أعمال الإصلاح شيئاً من الرياء ، وتلك حقيقة يجب الاعتراف بها رغم مرارتها ، ذلك لأن

الباحث المدقق حين يقرب المجهر من بعض المشروعات الإصلاحية الهامة ، يرى أنها لم تكن خالصة لوجه الإصلاح المحض ، وإنما قصد منها نوع من الغرور والتظاهر الزائف !

ونحن فى حاجة إلى عيون نفاذة بصيرة تخترق ستار الرياء الذى يلف الشقاء المنحط الكامن فى صميم مصر ، وتتخطى المدن الجميلة المزوقة إلى القرى التى أصبحت وكأنها تحمل العوامل الهدامة فى نهضة مصر بعد أن كان تاريخ مصر كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام لوزارة الزراعة « يكاد يكون جهاداً فى استثمار الأرض ، فقد أقام الشعب المصرى مجده على أسنة الفئوس »

ولست أجد وصفاً أبلغ فى الدلالة على حالنا من البيت الكبير ، يروقك ما على جداره الخارجى من نقوش ورواء ، حتى إذا ما تغلغلت فيه طالعك منه بناء خرب مهدم ، تتصاعد منه رائحة نتنة عفنة ، وتحتل الحشرات ضيافة منه .

هذه المبانى الفخمة التى تملأ المدن والتى شيد أكثرها أغنياء فروا بأموالهم من سكنى الريف القذر ، وتلك الطرق النظيفة الممهدة ، والمدارس المنبثة فى كل حى من أحياء المدن ، والمستشفيات الكثيرة التى تسهر على صحة السكان ،

هذه الأشياء وأمثالها ما كان أصدقها فى الدلالة على نهضتنا لولا أن وراءها قرى يحيا فيها ملايين المصريين ، حياة لا يشرق فيها شعاع واحد من أشعة الإصلاح والاهتمام ، حياة شقية أليمة مريضة ما أشك فى أنها ستبث سمومها فى المدن كما يقتل الجسم عضو واحد مريض !

هذه المشروعات الإصلاحية ما كان أجدرها باسم النهضة لولا أنها طلاء مزوق لبيت خرب مهدم !

وبعد هذا يخدعنا ويطربنا إطراء الأجانب حين يهدئون شهوة غرورنا ويؤكدون لنا أن مصر صارت حقا قطعة من أوروبا ؟

أقول الآن ـ وأنا أعنى ما أقول ـ أنهم يسخرون منا ويتفكهون بنا ، وإلا فما هذه المساخر والأكاذيب ، التى يفتريها كبار الكتاب الغربيين على مصر وأبنائها فى كبريات صحفهم ومجلاتهم ؟ وفيم تشبثهم بالتهامنا ما داموا يعترفون بمدنيتنا الأوربية ؟ وهل ترى يغنينا هذا الاعتراف يوم نطالب جديا بحقوقنا وحين تريدهم أهواؤهم على إنكار ما أكدوه من قبل ؟

إن المؤرخ المحقق ، حين يهمه أن يسجل لمصر نهضتها ،

لن يكتفي بالنماذج التي نقدمها له ممثلة في المدن ، وإنما سيتجول في نواح أخرى غير هذه المدن ، ليشهد من شقاء الفلاح وانحطاط مستوى معيشته ، ما نحاول دائما أن نتغافله ونتناساه ، كيلا يشوه علينا ترفنا ونعيمنا ! ومثله في ذلك مثل المفتش الماهر حين يفاجيء المدرسة بزيارته ليرى جهودها في التعليم ويحكم لها أو عليها ، فهو يتغافل عن نماذج « الكراسات » التي يجتهد المعلمون في اختيارها ، ليبحث في كراسات يطلبها بنفسه من التلاميذ !

والأجنبي ، حين يهمه أن يقف على حال مصر لغرض في نفسه ، أو لمجرد المتعة ، أو لمحض الاطلاع ، أترى يشرفنا عنده جمال المدن وبهاؤها حين ينتقل فجأة من القاهرة إلى شبرا البلد مثلا ، وكأنما يقذف به من النعيم إلى الجحيم ؟ أتراه لا يحتقر زيفنا ورياءنا حين يسير به ترام الهرم من الزمالك إلى الجيزة ، فيشهد عن يساره أنوار العائمات الساطعة تخترق الظلام ممتزجة بضحكات أهل الثراء والنعيم بينما يرى عن يمينه قبيل « العجوزة » أكواخا حقيرة واطئة لا يصلح أحدها لسكنى الحيوان ، وتضيء كلا منها ذبالة ضئيلة باهتة لا تقوى على اختراق الظلام ، بينما تختفي في

حيات الهواء أنات ضعيفة من أجسام منهوكة مريضة ، تتراكم في هذه الأكواخ وقد هدمها العوز وأذلها المرض والشقاء.

* * *

بينما كان أعضاء المؤتمر الجغرافي الذي انعقد في القاهرة في إبريل سنة ١٩٢٥ يزورون القصير طبقاً لبرنامج النزهة الذي أعدته لهم الحكومة المصرية ، أرادت آنسة بلجيكية في كثير من الإلحاح أن ترى « عزبة مصرية ؟ » ثم اختفت الآنسة وكأنما ابتلعتها الأرض ؟ أين عثروا عليها بعد الجهد ؟ في قرية مصرية من القرى البائسة التي لا تشرفنا بالطبع وفي يديها آلة التصوير تلتقط بها مناظر شقية قذرة، لأقوام يتخبطون في ظلمات الفقر والمرض ، لتعود بها إلى بلادها وقومها وتريهم نماذج من حياة المصريين ! ولعلها نسيت أمام ذلك البؤس الأليم ، الصور الشيقة التي أعدها البرنامج ! ومن يدري ؟ ربما أصبحت هذه الصور وثائق في يد السياسة الغربية ، تقدمها دليلا على انحطاطنا وقت الحاجة ، كتلك الصور التي يلوح بها موسوليني ، ويرى فيها مبرراً لإخراج الحبشة من عصبة الأمم ، حتى يخلو له الجو ولا يفسد احتجاج جنيف عليه لذته وهو يلتهم الفريسة في نهم واستمتاع ؟

لست أجهل أن نسبة الإصلاح لا يمكن أن توزع عادلة على جميع البقاع المصرية - وهى ليست كذلك فى أوروبا - ولست أجهل ما لنظرية التفاوت فى الثروة من أثر كبير فى حفظ كيان المجتمع ، ولكنى أفهم أن التفاوت فى الثروة ، ليس معناه أن يكون نصف الناس ملوكا ، ونصفهم شحاذين مثلا ، كما أفهم أن صعوبة حفظ النسبة فى توزيع الإصلاح ، ليس معناه أن ترفل المدن فى ترف بالغ وتهيم القرى فى شقاء أليم !

أصلحوا المدن ، ارتقوا بها إلى عظمة المدن الأوربية لكن لا تنسوا القرى ومن فى القرى !

اجعلوا المدن قطعة من صميم أوربا كما تريدون ، ولكن على ألا يكون الفرق بينها وبين القرى ، فرق ما بين السماء والأرض !

لقد توهم البعض أننى أبتغى إنهاض الفلاح ، عن طريق رفع سعر الحاصلات الزراعية ، حتى يبقى له بعد دفع الضرائب وأجر السماد والرى ، مايمهد له حياة معقولة ، ولكنى لم أفكر فى هذا ولن أفكر فيه ، ذلك لأن الأخذ بتلك النظرية الخاطئة - إن أمكن ذلك جدلا - معناه القضاء

على ثروتنا ، واضطراب ميزانية الدولة ؛ لأن انخفاض سعر القطن مثلا ، هو أكبر العوامل التى تمنحنا قوة المنافسة العالمية وتثبت أقدامنا فى المحيط الاقتصادى المضطرب ، وقد أيد ذلك الرأى ، الأستاذ جون تود كبير خبراء القطن فى انجلترا فقال : « كان القطن المصرى يخشى عليه من مزاحمة أقطان السودان وبيرو وإفريقيا الشرقية ، ولكن الآن وقد أصبح القطن المصرى أرخص أقطان العالم نسبيا ، فقد بدأ يسترجع مكانته ، وأصبح ينافس الأصناف المتفوقة من القطن الامريكى منافسة جدية » ، فإصلاح حال الفلاح عن طريق رفع الأسعار يكاد يكون مستحيل التنفيذ والفائدة .

إصلاح الفلاح يجب أن يقصد به تمكينه من زيادة الإنتاج ، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا مهدنا له حياة صحية ممكنة ، وإلا إذا عملنا على تخفيض نفقات الإنتاج .

يقوم الفلاح المصرى بواجباته نحو الوطن كما لا يقوم بها سواه ، إنه يطيع القوانين ، ويدفع الضرائب الفادحة ، ويتقدم إلى الخدمة العسكرية دون أن تساعده ظروفه المادية العصيبة ، على تمثيل مهزلة البدل النقدى ، الذى يعتبر وصمة

فى جبين المصريين . وهو بعد بعمل نهاره وليله فى ملء أسواقنا بالخيرات . وخزانة الدولة بالمال ، فأما حقوقه فاما واجباتنا نحوه ، فعبثا نعثر على شىء منها ولو بمصباح ديوجين !

إن الفلاح الذى يملك ستة أفدنة دخلها أربعون جنيها يدفع اثنى عشر جنيها ضريبة سنوية للأموال ، عدا ضريبة الخفر ، وهو بعد هذا لا يشعر بأننا نحس بوجوده إلا ساعة يطالعه وجه الصراف ، بينما يدفع ساكن المدينة ثلاثة جنيهات عن مثل ذلك الدخل فتمهد له الحكومة سبيل العيش الآمن الصحى الراقى ، فهل تكون القرية جزءا خارجا عن الحدود المصرية ؟ هل هى من القلة والتفاهة بحيث لا يؤثر شقاؤها ومرضها فى جسم الأمة . ولا يعوق سير القافلة ؟ أم قد فرض القانون حقوقا لسكان المدن وواجبات على القرويين ؟

يقول «الفلاح المسكين» : «لقد عزم كثير من إخوانى الفلاحين على الهجرة من أوطانهم ، فهل لك يا سيدتى أن ترشدينا إلى بلد نعيش فيه آمنين مطمئنين ، ولك من الله الأجر الجزيل ؟» وأنا لا أملك إلا أن أوصيهم بالصبر

إن كان إلى الصبر سبيل . إن الفلاح يفارق القرية الحبيبة إليه وفى قلبه لوعة وفى عينيه دموع حبيسة توشك أن تنهمر لولا الحياء المداراة . والفلاحون يتحملون هول الفراق لو كان هناك مكان آخر يعيشون فيه آمنين مطمئنين ، ولكن أين هذا المكان وكل الأراضى الزراعية فى مصر تضيق بسكانها ، وكل القرى المصرية يغمرها الشقاء ؟ لم يبق إلا أن ننتظر كلمة المجلس الاستشارى لمصلحة الأملاك فى مسألة إصلاح الأراضى البور ، ويهمنى والمجلس على وشك الاجتماع كما جاء فى الأهرام الغراء ، أن أردد ما قاله سعادة مدير الجمعية الزراعية الملكية : « إذا لم يستنفع بهذه الكميات العظيمة من المياه التى صرفت الملايين من الجنيهات المصرية فى سبيل الحصول عليها ، لتحسين وسائل الرى الحالية وإصلاح الأراضى البور ، فإنها تترك لتذهب سدى فى البحر الأبيض ، وهذا يبدو أمرا عجيبا أمام العالم ، مهما قدمنا المعاذير والأسباب فالواجب القيام بأسرع ما يمكن فى العمل على إصلاح البور من الأراضى ، حتى يمكن الانتفاع بهذه المياه ، وتشغيل الأيدى العاملة العاطلة التى تضيق بها

الأقاليم المصرية ، وتكتظ بها المدن ، فيمكن تخفيف الضغط عنها واستغلال رؤوس الأموال المخزونة فى الإنتاج النافع فيقل العاطلون »

فإذا ماسعت الحكومة إلى الإصلاح العاجل ، فيومئذ نوفق إلى إنشاء مناطق زراعية جديدة يفر إليها الفلاحون الذين ضاقت بهم قراهم ، وضاقوا هم ذرعا باستبداد العمد ، فيجدون شيئا من الرحمة والرخاء ، ينسيهم ما قاسوه من ظلم وقسوة وشقاء .

* * *

لقد قست الحياة على سكان الصحراء الغربية ، من المصريين الأعراب الذين يعتمدون على الزراعة فى عيشهم ففروا إلى الإسكندرية ، مفضلين ذل الخدمة وقسوة العمل فى المبانى ، على الموت جوعا ، وأحسب أن هجرتهم يجب أن تكون نذيرا لنا ، كى نفكر فى البؤس الأليم الذى انحط إليه عيش الفلاح ، أما إذا تغاضينا أو اعتمدنا على الإصلاح الاسمى البطىء الذى لا يتناسب مع فداحة شقاء الفلاح فإن العاصفة ستفاجئنا ويومئذ لن نملك إلا قولنا «ليتنا!!» حين لا تنفع ليت .